

تكوين الفكر العربي قبل الاسلام (5)

- كما تكشف عنه الدراسات اللغوية -

الدكتور: رشاد محمد خليل

الباب الثاني

« الفصل الاول » الله

عرض لنا الشعر القديم صورة بالغة التحديد والوضوح والشمول للتصور الدينى العربى ويقوم هذا التصور على الايمان بقوة عليا ، لا يدرك كنهها ولا تعرف طبيعتها ولا تتصور ذاتها ، وانما تبر بآثارها الظاهرة في مختلف شؤون الكون والحياة .

ويطلق على هذه القوة العليا لفظ (الله - اله - رب) وهى قوة منفردة وحدها بتصريف الكون كله امرا وخلقا وتدبيرا الخ . وقد وصفت هذه القوة بمجموعة من صفات الكمال : كالتقوية ، والعلم ، والحكمة ، والارادة ، والخلق ، والاحياء ، والاماتة ، والرزق ، والتدبير ، والدوام والرحمة ..

وقد ورد ذكر هذه القوة العليا بمختلف مسمياتها مفردة او موصوفة باحدى صفاتها وذلك في معرض القسم وغيره بيانا لفضلها ، او تذكيرا بها ، او تحذيرا من عقابها او ترغيبا في ثوابها .. الخ . وحين لا تذكر هذه القوة تصرحا ينهم من القرائن انها وحدها المقصودة ، وانها هى الموصوفة بصفات الكمال ، كما يدل ذلك على انهم لا ينسبون لغيرها صفة من صفاتها او كمالا من كمالاتها او فضلا من انضالها .

وقد اورد القالى في ذيل الامالى مجللا لصفات الذات الالهية وكمالاتها في تصور العرب في معرض ذكره لايمان العرب في الجاهلية ، ولم يشر الى مصادره . وقد نقل عنه النجى في كتاب ايمان العرب في الجاهلية دون احالة الى المصادر ، ولما كان ما اورده كلاهما لا يخرج عما ورد في الشعر الجاهلى ، فمن الانضل ان نلجا اليه مباشرة لتتعرف عليه هناك .

الله الحق اهل التقوى يقول زهير :

بدا لى ان الله حيق نزادنى

الى الحق تقوى الله ما كان باديا (1)

الله يعلم ويجزى يقول ذو الاصبع المدوانى :

الله يعلمنى والله يعلمكم

والله يجزيكم عنى ويجزىنى (2)

يعلم ما فى النفوس يقول زهير :

نلا تكمن الله ما فى نفوسكم

ليخفى ومها يكتم الله يعلم (3)

عالم الغيب يحيى العظام وهى رميم

يقول حاتم :

اما الذى لا يعلم الغيب غيره

ويحيى العظام البيض وهى رميم (4)

نو نعم يشاء ، ذو عقد وتصفاح يقول

عبيد بن الابصر :

حلفت بالله ان الله ذو نعم

لمن يشاء وذو عقد وتصفاح (5)

رب الحل والاحرام يقول المهلهل :

تتلوا كليباً ثم قال اربعوا

كذبوا ورب الحل والاحرام (6)

الله راء وسامع يقول تيس بن الدادية :

وقد جاوزتسا فى الشهور كثيرة

فما نولت والله راء وسامع (7)

لحا الله يقول عروة بن الورد :

لحا الله صلوكا اذا جن ليله

مصافى المشاش النا كل مجزر (8)

كسا الله يقول عمرة بن جمل :

كسا الله حى ثعلب ابنة وائل

من اللؤم اظفارا بطيئا نصالها (9)

راى الله يقول زهير :

راى الله بالاحيان ما فعلا بكم

فابلاها خير البلاء الذى يبلى (10)

- (2) مفضليات 1 / 18 .
- (4) الديوان ص 1534
- (6) اصمعيات ص 197
- (8) الديوان ص 73
- (10) الديوان ص 51

- (1) شرح الديوان ص 287
- (3) المعلقة
- (5) الديوان ص 24
- (7) اغناسى ص 14 / 25
- (9) مفضليات 2 / 28

يسأل الله .. سائل الله .. بالله يدرك .. يقول
عبيد بن الإبرص :

من يسأل الناس يخرمونه
وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كل خير
والقول في بعضه تلييب (20)

الله جنّة يقول النابغة :

تذكراني بجمل الله جنّة
فيصبح ذا مال ويقتل واقره (21)

نصر الله يقول النابغة :

فلما رأى ان نمر الله ما له
وائل موجودا وسد مفاتره (22)

وقاها الله يقول النابغة :

فلما وقاها الله ضربة فاسه
وللبر عين لا تفيض ناظرة (23)

نجم الله بيننا يقول النابغة :

نقال تعالى نجعل الله بيننا
على ما لنا أو تنجزى لى آخرة (24)

الله أنجح ما طلبت به يقول النابغة :

الله أنجح ما طلبت به
والبر خير حقيبة الرجل (25)

معاذ الاله يقول البعيث بن حريث :

معاذ الاله ان تكون كظبية
ولا دمية ولا عقيلة ريرب (26)

الى الله أشكو يقول الفطمش :

الى الله أشكو لا الى الناس اننى
ارى الارض تبقى والأخلاء تذهب (27)

رزق الاله .. على الرحمن رزقكم يقول
حاتم الطائى :

كلوا الآن من رزق الاله وأبشروا

عاقبتى ربي يقول النابغة :

إذا نعمتبنى ربي معاقبة

قرت بها عين من يأتيك بالحمد (11)

الحمد لله يقول امرؤ القيس :

أرى ابنى والحمد لله أصبحت

ثقالا إذا ما استقبلتها صعوداها (12)

الله اعطاك يقول النابغة :

الم تر ان الله اعطاك سورة

ترى كل ملك دونها يتذبذب (13)

رب حياتا حياه الله يقول عبدة الطيب :

رب حياتا بأموال مخلولة

وكل شيء حياه الله تخويل (14)

نعم الله ، ربه ، صنع الله ، صنع

يقول سويد بن أبى كاهل :

نعم لله تينا ربه

ومصنع الله والله صنع (15)

كفائى الله يقول سويد :

تد كفائى الله ما فى نفسه

ومتى ما يكف شيء لا يضع (16)

سلام الله ، ورحمته يقول عبدة الطيب :

عليك سلام الله قيس بن عامر

ورحمته ما شاء ان يترحمنا (17)

ترك الله يقول طرفة :

كل خليل كنت خالنته

لا ترك الله له واضحة (18)

الله يشهد عمرو بن الاملع :

ان السماء وان الارض شاهدة

والله يشهد والايام والبلد (19)

(11) المعلقة

(13) مختار من 102

(15) مفضليات 1 / 88

(17) سن الحياة 2 / 142

(19) وحشيات من 122

(21) مختار من 142

(25) الديوان من 239

(27) حماسة 1 / 179

(12) الديوان من 347

(14) مفضليات 1 / 58

(16) مفضليات 1 / 88

(18) مختار من 266

(20) مختار من 98

(22) : (23) : 24 مختار من 142

(26) حماسة 1 / 155

فرق الله يقول مالك بن عجلان :
 قد فرق الله بين امركم
 في كل صرف فكيف يأتلف (38)
 المؤمن العائذات يقول النابغة :
 والمؤمن العائذات الطير مسحها
 ركبان كله بين الغيل والسعد (39)
 هداك الله يقول البرج بن مسر الطائي :
 نسائل هداك الله اي بنى اب
 من الناس يسمى سمينا ويفارق (40)
 يقبض .. يبسط .. يفنى يقول ذو الاصبع
 المدوانى :
 ان الذى يقبض الدنيا ويبسطها
 ان كان اغناك غنى سوف يفنئنى (41)
 ليس له شريك .. علام يقول عبيد بن الابرمس :
 والله ليس له شريك
 .. علام ما اخفت القلوب (42)
 الله المعين يقول ابو تيسر الاسلت :
 واحرزنا المغنايم واستبحنا
 حصى الاعداء والله المعين (43)
 قضى .. صور .. الخالق يقول تيسر بن الخطيم
 قضى لها والله حين صورها الـ
 خالق الا يكتها سدف (44)
 الوارث .. الباقي يقول المزق العبدى :
 هون عليك ولا تولع باشفناق
 فانما مالنا للوارث الباقي (45)

الشرك وتعدد الآلهة :

من المعروف ان العرب قبل الاسلام كانوا
 مشركين .. يعبدون مع الله اصناما وضموها في جوف

فان على الرحمن رزقكم غدا (28)
 الله ليس لحكمه حكم يقول طرفة :
 لتنتقبن عنسى المنيبة ان
 الله ليس لحكمه حكم (29)
 شاء الاله .. سيلفنى يقول المثقب العبدى :
 وايقنت ان شاء الاله بانه
 سيلفنى اجلادها وقصيدها (30)
 باذن الله سلامة بن جندل يقول :
 كم من فقير باذن الله قد جبرت
 وذى فتى بوائه دار محروب (31)
 ابي الله يقول النابغة :
 ابي الله الا عدله ووفاءه
 فلا الفكر معروفولا العرفضائع (32)
 قضى الله يقول عامر بن الطفيل :
 تضى الله في بعض الكاره للفتى
 يرشد وفي بعض الهوى ما يحاذر (33)
 يقدر الله يقول ثعلبة بن عمرو العبدى :
 عناد امرىء في الحرب لا واهن القوى
 ولا هو عبا يقدر الله صارف (34)
 يرفع الله ومن شاء وضع يقول سويد :
 وبناء للهمالى انما يرفع الله ومن شاء وضع (35)
 الله اهلك يقول زهير :
 الم تر ان الله اهلك تبعا
 واهلك لقمان بن عاد وعاديا (36)
 ينزع الله يقول زهير :
 محسدون على ما كان من نعم
 لا ينزع الله منهم ما له حسدوا (37)

- (29) الديوان ص 159
 (31) مفضليات ص 131
 (33) حماسة 1 / 213
 (35) مفضليات ص 197
 (37) من الديوان ص 282
 (39) المعلقة
 (41) مفضليات 1 / 68
 (43) البيان والتبيين 3 / 17
 (45) مفضليات 2 / 48

- (28) الديوان ص 26
 (30) مفضليات 1 / 48
 (32) الديوان ص 53
 (34) مفضليات ص 282
 (36) الديوان ص 88
 (38) جبهة ص 137
 (40) حماسة 1 / 175
 (42) المعلقة
 (44) اغانى 3 / 53

الكعبة ، منها اللات والعزى ومناه الخ .

ومن المعروف انهم لم يكونوا مجعنين على عبادة هذه الاصنام ، وانما كان لكل قبيلة صنم او اكثر خاص بها ، ولكن الذى يستلفت نظر الباحث هو ندره ورود ذكر الاصنام والوثان في الشعر القديم (الجاهلى) . وانك لتفتش الشعر على اتساعه فلا تكاد تعثر الا على امثلة تعد على الاصابع ، كما انها لم تترد الا على معرض القسم فقط ، واذا وردت فلا توصف بصفة من الصفات التى خصوا بها الله مثل الخلق والتصريف ، والمشيمة ، والاماتة ، والاحياء ، والرزق والجزاء ومن هذه الامثلة النادرة قول طرفة :

فأقسمت عند النصب انى لهالك

بنتفة ليست بغيظ ولا خفض (46)

وقول المنطس :

اطرنتنى حنر الهجاء ولا
واللات والانصاب لا تثل (47)

وقول عبد الغوى بن وديعة المزنى :

انى حلفت يمين صدق برة
بمناه عند محل آل الخزرج (48)

عقيدة الخلود والبعث والحساب :

لم يتردد في الشعر تصور محدد عن هذه العقيدة: وان كانت قد وردت بعض الآثار الخافقة لتصور يبدو انه كان تصورا خاصا بقاتليه . ولعله تسرب اليهم من المسيحية ومنه قول حاتم الذى مر (يحيي العظام وهى رميم) ، وقول علقمة ذو جدن الحميرى :

اليوم يجزون بأعمالهم

كل امرىء يحصد ما قد زرع (49)

صاروا الى الله بأعمالهم

يجزىه من خان ومن ارتدع

وقول أمية بن أبى الصلت :

كل دين يوم القياسه عند الل

ه الا دين الحنيفه زور (50)

وقول سويد بن أبى كاهل البشكرى :

(46) الديوان ص 49

(48) الاصنام ص 14

(50) أغاني 4 / 122

(52) المعلقة .

حشر الاله مع القردو ملحا

وأبارييمة الام الاتوام (51)

ويتقول زهير :

فلا تكتمن الله منا في نفوسكم

ليخفى وبمها يكتم الله يعلم .

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

ليوم الحساب او يعجل فينتقم (52)

الله في الفلسفة اليونانية :

الطبيعويون الاولون : نقل أرسطو عن طاليس

توله « ان العالم مملوء بالالهة » .

اما انكسيتديرس وانكسياتس فلا نجد لهما تصورا محددًا في هذه المسألة . ويذهب هرقلطس الى ان الله نار لطيفة حالة في العالم تديره وتدبره ، ولكنها لم تخلقه فالعالم لم يصنعه أحد من الآلهة أو البشر ، والله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، وفرة وقله ، يتخذ صورًا مختلفة كالنار الممطرة تسمى باسمى المطر الذى يفوح منها .

وهناك ديانة تسمى الارفية نشأت من جراء وقوف اليونان على الانكار الشرفية ودفعت بهم الى اصطناع ديانات سرية الى جانب الديانة الاهلية ، هدفها الاتصال بالالهة والمشاركة في سمادتهم عن طريق ممارسة طقوس ذات طبيعة سحرية .

ثم جاء فيثاغورس فأنشأ فرقة دينية علمية تشبه الارفية ، او هى أخذت عنها ثم اثرت فيها ، ولكن لم تصل نصوص صريحة عن عقيدتهم في الالهية .

اما الابليون فقد ذهب زعيمهم اكساتوفان والى ان الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا اليهم عواطفهم وصوتهم وهيئتهم ، وانه لا يوجد غير اله واحد أرفع الموجودات السماوية والارضية ، ليس مركبا على هينتنا ، ولا مفكرا مثل تفكيرنا ولا متحركا ، ولكنه ثابت كله بصر وكله فكر وكله سمع : يحرك الكل بقوة عقله وبلا عناء . وهذا كلام قوى في التنزيه والتوحيد ، لم يمد له مثل في اليونان غير ان أرسطو يذكر : « ان اكساتوفان نظر الى مجموع العالم وقال

(47) الاصنام للكليسي ص 16

(49) جهرة ص 138

(51) أغاني 13 / 105

ان الاشياء جميعا عالم واحد ، ودعا هذا العالم الله ولم يقل شيئا واضحا ، ولم يبين ان كان العالم عنده واحد من حيث الصورة او من حيث المادة . فكأنه كان حلولا او كأنه أخذ بوحدة الوجود عن فلاسفة وطنه ايونية ، وتصور الوجود تصورا روحيا . اما تلميذه بارميندس فلم يتصور وجودا خارجا على الوجود القائم لان الوجود قديم واحد ثابت ساكن مسمى حدوده « مقيم كله في نفسه » ، اذ ليس خارج الوجود ما منه يتحرك وما اليه يسير . وهو كامل متناهى اى معين (لا ينقصه شيء) اذ ليس خارج الوجود وجود ان العالم ساكن غير متحرك ، واحد غير متعدد . ولم يزد مليسوس على ذلك غير قوله ان العالم لا متناه .

اما الطبيعيون المتأخرون فمنهم ابناء هوتليس الذى ذهب الى القول بان الآلهة والنفوس تتكون كما تتكون الاشياء الفاسدة ، والآلهة الحقة عنده العناصر والمحبة والكراهية ، وبعده ديموقريطس الذى مضى بالمذهب الاالى الى حده الاقصى ووضعه فى صيفته النهائية فقال : ان كل شيء امتداد وحركة فحسب ولم يستثن النفس الانسانية والآلهية ، فذهب الى انهم مركبون من جواهر كالبشر الا ان تركيبهم ادق ، فهم لذلك احكم واقدر واطول عمرا بكثير ولكنهم لا — يخلدون ، فانهم خاضعون للقانون العام — اى للفناء بعد الكون واستئناف الدور على حسب ضرورة مطلقة ناشئة من المقاومة والحركة والتصادم دون اية غائية او علة خارجة عن الجواهر مثل المحبة والكراهية ، ودون اية باطنة مثل التكاثر والتخلخل ، ودون اية كينية .

اما انكساغورس فانه وان كان قد قال بالعقل كلمة أولى — الا انه فسر الكون تفسيراً آليا مثل من تقدمه من الطبيعيين .

اما السوفسطائيون فمنهم بروتاغوراس الذى توقف عن القول بالآلهة لصعوبة المسألة من جهة ، ويقتصر العمر من جهة اخرى ، اما غورغياس فقد صرف جهده الى التشكيك فى كل شيء ولم يقل شيئا .

اما سقراط الذى كانت فلسفته رد فعل للسوفسطائية فقد آمن بتعدد الآلهة وان رفض التصديق بما يروى عن شهوات الآلهة وخصوماتهم ، وعرف الدين بأنه تكريم الضمير للعدالة الالهية لا تقديم

للقرابين وتلاوة الصلوات مع تلميح النفس بالانتم ، وكان يعتقد ان الآلهة يرعوننا ، وانهم عينوا لكل منها مهمة فى هذه الدنيا .

ثم جاء بعده افلاطون ، فبرهن على وجود الله من جهتين : الاولى الحركة : فحركة العالم دائرية منظمة لا يستطيعها العالم بذاته ، فهى معلولة لعلة عاتلة هى الله ، والثانية النظام : فالعالم آية فنية غاية فى الجمال — ولا يمكن ان يكون النظام البادى فيما بين الاشياء جملة وتفصيلا نتيجة علة اتفاقية ولكنه صنع عقل كامل .. توخى الخير .. ورتب كل شيء عن قصد .. كما برهن عليه بالمثل التى جعلها مثالا لكل ما فى العالم من جمال وخير وتعقل . فالله عنده روح عاقل محرك ، منظم .. جميل .. خير .. عادل .. كامل .. بسيط .. لا تنوع فيه .. ثابت لا يتغير صادق لا يكذب ، ولا يتشكل اشكالا مختلفة كما صورته هوميروس وغيره من الشعراء ، وهو كله فى حاضر مستمر ، وهو معنى بالعالم على خلاف السوفسطائيين ، وهو عالم بأفعال العباد ومحاسبهم عليها ، وهو لا يريد الشر ولكنه سبغ به فداء للخير الفائض على العالم .. وعناية الله تشمل الكليات والجزئيات .. ولكن فكرة الالهية مضطربة فى كتابات افلاطون اضطرابا شديدا لان كل شيء عنده اله او الهى : المثل ومثال الخير .. ومثال الجمال .. والصانع .. والنموذج الحى بالذات .. والنفس العالمية .. والجزء الناطق من النفس الانسانية .. وآلهة الكواكب .. وآلهة الجن والاولب والجن فايين الله بين هؤلاء أ وكيف وحدنا الصانع ومثال الخير ومثال الجمال ولم يقرب افلاطون بينهم ، بل تركهم متسرقسين ؟ ؟

وجاء بعده ارسطو فبذل جهده فى اثبات الوجود لجوهر دائم غير متحرك وهو فى الوقت نفسه علة أولى لحركة العالم ، كما انه (اى الجوهر الاول) فعسال لا كالمثل الافلاطونية ، بل انه فعل محض لا تخالطه قوة ، والا لم تتحقق ازلية الحركة وابديتها ، وفى الوقت نفسه نانه لما كانت الحركة ازلية كان المحرك الاول ازليا ، واذا كان حركات ازلية عدة وجب القول بمحركين اوائل ازليين على راسهم اول هو مبدا حركة سائر الاشياء . والواقع انه توجد الى جانب الحركة الاولى الدائمة الواحدة الصادرة عن المحرك الاول — حركات اخرى خاصة للسيارات قد نصل فى حسابها الى 55 او 47 ،

هناك مثل هذا المعدد من الجواهر غير المتحركة والعقيدة القديمة صادقة — اذ تقول ان الكواكب آلهة ، والكواكب الهية حقا بشرط ان ننظر اليها في انفسها ، مجردة عما اضيف اليها فيما بعد من اساطير وتصاوير بشرية وحيوانية . اما ماهية المحرك الاول فهو ليس جسيما وانه يحرك لغاية — وانه معقول ومعشوق .

اما بالنسبة للمدارس المتأخرة فقد خلط اقليدس من المدرسة الميغارية كلام سقراط بذهب بارميندس ، وقال ان الخير يسمى بأسماء كثيرة فيقال له الله او العناية او العقل ، وغلا اتباع المدرسة الثورينائية في التسمية ، وعلّموا الاحاد فقال واحد منهم : ان الالهة في الاصل رجال ممتازون كرمهم الناس بعد مماتهم . وذهب ابيقورس الى ان الآلهة موجودون ، يدل على وجودهم او انهن موضوع « فكرة سابقة » شائعة في الانسانية جمعاء ، والفكرة السابقة تتكون بتكرار الاحساس وكل احساس فهو صادق . واساس هذه الفكرة السابقة الخيالات التي تتراءى لنا في المنام واليقظة ، والتي لا بد ان تكون منبثقة عن الآلهة انفسهم ، ولما كان عندنا فكرة وجود دائم سعيد فالآلهة يقابلون هذه الفكرة ، ولما كان لكل شيء ضده فلا بد ان يقابل الوجود الفاني المتألم وجود دائم سعيد ، ويجب ان تتصور الآلهة على حسب احسن شيء فينا .. اجسامهم لطيفة غاية اللطافة .. متحركة ابدا بين العوالم بعزل عنها .. فلا ينالهم ما ينالنا من دثور ولكنهم مخلدون ، ولما كانوا سعداء بعبدان عن العوالم كما قلنا فهم لا يعنون بنا ، ولا يكفرون صفوهم بشؤوننا ولا يعلنون عن ارادتهم بالنذر كما تعتقد العامة .. هذه المعتقدات وما يتفرع عليها من خرافات مثل تقديم القرابين للآلهة — واحياتا القرابين البشرية — لطلب مدددهم ورضائهم تناقض الفكرة السابقة عنهم ، اذ يستحيل ان يكون الآلهة سعداء مطمئنين مع ما نضفيه اليهم من عواطف ومشاكل وشواغل .. فعليتنا ان نطمئن نحن من جبهتهم وان ننسى عن نفوسنا الخوف منهم .

اما الرواقيون فقد تابعوا الماديين في قدم العالم ، وياته الهى بالنار التي هي العلة الوحيدة والاولى بنا فيها عقل .. وقانون .. وضرورة .. وقدرة .. فالعالم الهى معقول تماما .. وهم يذكرون الله ويتوجهون اليه بالصلاة ، ويقصدون النار ، وقانونها او ذلك « العقل الكلى الذى وقعت بهوجبه الاحداث الماضية وتقع

الاحداث الحاضرة وستقع الاحداث المستقبلية » . وهم يذكرون الآلهة بأسمائهم المينولوجية ، فيجرون الديانة الشعبية في المظاهر ويعنون في الحقيقة ما ترمز له هذه الاسماء من الكواكب والعناصر والاحداث الكونية . وهم يذكرون العناية الالهية ويريدون بها تلك الضرورة العاملة التي تتناول الكليات والجزئيات، ويبرؤونها من الشر لان الشر ضرورة للعالم كضر للخير ، والله يريد الخير ولكن تحقيق الخير يستلزم الشر . اما الشر الخلقى تراجع الى حرية الانسان ، وهم يؤمنون بالقدر ولكن القدر عندهم لا يعنى التواكل لان الظروف الخارجية غير محتمة كما اتنا نجهل العلة التي تحتم النصل فالفعل بالاضافة الى غير محتوم ولنا ان نعمل كأننا احرار .

اما الشكاك المتأخرون فقد توقعوا مثل الشكاك القدامى عن الحكم .

اما في الانلاطونية الجديدة فقد قال فيلون اليهودى السكندرى باله مفارق ، العالم ، خالق له ، معنى به ولكنه بعيد كل البعد عن كل ما يدركه الفعل واول كل ما جاء في التوراة من تشبيه ، ورايه ان العناية الالهية ليست مباشرة ولكنها تتخذ وسطاء كما ان النفس لا تبلغ الى الله الا بوسطاء والوسيط الاول هو « اللوغس » او الكلمة ابن الله نموذج العالم ، ويلي الحكمة . فرجل الله (آدم الاول) فاللائكة فنفس الله واخيرا « القوات » وهى كثيرة ملائكة وجن نارية او هوائية تنفذ الاوامر الالهية .

وجاء بعده افلوطين وكان مسيحيا ثم ارتد الى الوثنية اليونانية وعنده « ان الواحد او الاول بسيط ليس فيه تنوع . ليس هو لوجود الآن الوجود معين اى ماهية محدودة ومعقولة » ، وانما هو مبدأ الوجود ووالده والوجود بمثابة ابنه البكر . فهو الاشياء جميعا (لانه يحويها بالقوة) دون ان يكون واحدا منها (من حيث ان ليس فيه تعيين او تمييز وانه يظل فى ذاته ان يعطيها الوجود) . وهو كامل لا يفتقر الى شيء ولما كان كاملا فهو مياض ، وفيضه يحدث شيئا غيره ، فيتوجه الشيء المحدث نحوه ليتأمله فيصير عقلا .

نقــــــــــــد :

لقد حاولت في ايجاز شديد ان اقل صورة كاملة لتصور الفلسفة اليونانية على اختلاف مدارسها والمدارس التي تأثرت بها قبل الاسلام .

ولنا على هذا التصور عدة ملاحظات :

الأولى : ان هذا التصور هو تصور الفلاسفة خاصة وليس تصورا شعبيا . اى انه تصور قلة ضئيلة جدا من المفكرين وتلاميذهم ، اما تصور الشعب الاغريقى نفسه وكذلك الشعب الرومانى الذى بدء المسيحية . كان تصورا (ميثولوجيا) خالصا ، اى تصورا يقوم على الاساطير والخرافات والكهانة والطقوس ... الخ حول آلهة اوليمب وتخصص مغامراتهم وشهواتهم واهوائهم مع انفسهم ، مع البشر بالنسبة للاغريق ، وعلى آلهة روما ، وعبادة القياصرة بالنسبة للرومان ، اى ان التصور الشعبى عبر القرون لم يطرأ عليه تطور فى اتجاه ارتقى نحو التوحيد ، وانما يلاحظ من يدرس الميثولوجيا الاغريقية انها تحولت فقط من الازدهار الذى الانحلال .

الثانية : ان التصور الفلسفى للفكرة الدينية لم ينجح قط فى ازهى عصوره وعلى يد اعظم فلاسفته سقراط ، افلاطون ، ارسطو فى التخلص من العقائد الشعبية الميثولوجية يونانية كانت او منتولة عن شعوب اخرى ، فقد ظل الشرك بمعناه الحقيقى - اى اشراك آلهة آخرين مع الله فى التصرف والتدبير والبقاء والنفع والضرر عند اكبر الفلاسفة سقراط وافلاطون وارسطو . كذلك اتفقوا مع العقائد الشعبية (الميثولوجيا) فى القول بقدوم العالم : وجبرية القضاء والقدر حتى بالنسبة للآلهة انفسهم ، كنا ان كثيرا منهم خصوصا الطبيعيين قد استمروا على القول بفكر الحلول ووحدية الوجود المنتولة عن الهنود .

الثالثة : ان تصور الفلاسفة فكر متناقض جدلى ذاتى لا يتحول ككل من مرحلة الى مرحلة ارتقى . وانما يبقى بعضه بعضا . كما ان المتأخر منهم قد يعود لتوديد عقائد قديمة اضافات جديدة . كما فعلت مدارس الطبيعيين والشكاك .

هذه بعض الملاحظات نعقب عليها برأينا فى الآراء التى سبق ايرادها فى التلخيص ، واولها رأى الطبيعيين الاولين الذى لا يعد وان يكون ترديدا « للميثولوجيا »

الاغريقية فى آلهة الاولمب ، وفى النار الخالدة التى سرقها برومستحيوس واعطاها للبشر فمعاتبته الآلهة . ولم يزد الطبيعيون المتأخرون شيئا غير ترديد نفس الانكار واخضاع الآلهة للكون والفساد حسب اعتقاد (الميثولوجيا) الاغريقية فى ان الآلهة مخلوقون كالبشر .

اما الايليون فقط فلم يعترفوا بشيء خارج الوجود ما عدا ايكستوفان الذى قال كلاما فيه تنزيه وتوحيد ، وان كان تفسير ارسطو له يدخله فى زمرة اصحابه القائلين بوحدية الوجود المنتولة عن العقائد الشرقية ، ولم يقل السوفسطائيون شيئا يستحق التعقيب .

وعلى الرغم من اجلاننا لصدق سقراط واخلاصه فانه لم يخرج من عالم تعدد الآلهة والشرك الحقيقى وان كان قد نزه الآلهة من شهوات البشر وخصوماتهم ، وهى خطوة تنزيهية ذات طابع اخلاقى .

اما افلاطون فقد صنع عالما اسطوريا راقيا للفكرة الدينية وضع فيه المثل كآلهة مع الصانع الاول ، والمحرك الاول ، والمقل الاول وكل هذه الآلهة مستقلة ، فكانه نقل التعدد الى عالم ونئى آخر اكثر شفافية ونقاء من عالم (الميثولوجيا) الاغريقية ، وتصوره خطوة للابام بلا شك بالنسبة للفكر الفلسفى اليونانى ، ولكنها خطوة فى نفس الدائرة ، وذات طابع اجتهادى شخصى رغم الاستدلال الاستقرائى القياسى (الجدل الصاعد والنازل) الذى قام به لاثبات حاجة العالم الى محرك وتنظيم عاقل جميل خير عادل كامل بسيط ... الخ . ولكن ذلك كله يضطرب اضطرابا شديدا ، حين يكثر من الآلهة فيضيف الى الآلهة المثل آلهة الكواكب والنفس العالمة وآلهة الاولمب والجن .

اما ارسطو فقد دفعته نزعته العقلانية وولعه بالتجريد مع رغبته فى التنزيه الى تصور اله سلبى تماما يحرك ولا يتحرك ويؤثر فى العالم لا بارادته ، ولكن بحاجة العالم اليه (العشق) ولكنه وكما يقول يوسف كرم كان اكثر اغرافا فى الشرك مع افلاطون ، لانه لما جعل الحركة ازلية قال بمحركين ازيلين هى آلهة ، وهى الكواكب ووصل بعددها الى 47 او 55 ، بل وزاد على ذلك الامرار بالمقيدة (الميثولوجية) صراحة فقال « والمقيدة القدينة صادقة » اذ تقول ان « الكواكب آلهة » وان كان قد جردها من الشهوات . اما بالنسبة

الملاحظات التالية :

الاولى : ان هذا التصور تصور شعبي عام ، وليس تصورا ذاتيا لبعض الفلاسفة المتخصصين ، فنحن نجد هذا التصور عاما مبنيا في الشعر كله دون ان نستطيع رده الى اشخاص باعيانهم ؛ ولما كان الشعر هو علم العرب ولم يكن يعلم للخاصة وحدهم في المدارس كما هو الشأن بالنسبة للفلسفة الاغريقية فاننا نستطيع ان نقول ان هذا هو اعتقاد جميع العرب لان هذا التصور مأخوذ من الاستعمال اللغوي الشائع في الشعر وفي غير الشعر اى ان لفظ (الله ، رب ، اله) او اى لفظ يدل على صفة من صفاته لا تعنى خارج الاستعمال الشعري معنى آخر ، وقد اثبتتها المعاجم اللغوية في نفس المعانى الذى اوردها الشعر ، ولم يرد في الشعر او خارج الشعر اعتراض على استعمال من هذه الاستعمالات من احد نعرمه ، او روى له خبر .

الثانية : ان هذا التصور الشعبى والثقافى في وقت واحد تصور غير متناقض او مضطرب ، وهو يقته لنا نكرا لا اختلاف عليه من احد ، وهو في نفس الوقت يبدو لنا تصورا غير جدلى لا ينهض على قضايا واقعية ؛ ورغم انه يأخذ صورة الاعتقاد الشعبى العام الا انه اعتقاد سام رفيع لم يهبط الى مستوى الاعتقادات التى عرفتها الشعوب الاخرى الاغريقية منها والشرقية ، والتي يقوم اعتقادها اساسا على الخرافات والاساطير ، اى انه اعتقاد فكرى خالص وليس اعتقادا (ميثولوجيا) اسطوريا ، وذلك رغم وجود شركاء عديدين وآلهة آخرين لان هؤلاء الشركاء لم يتجاوز دورهم في الاعتقاد العربى دور الشفهاء والوسطاء الذين لا يشاركون في خلق ولا تدبير ..

الثالثة : ان هذا التصور الشعبى والثقافى في وقت واحد يقوم على اساس علمى خالص يعتمد على الملاحظة الدقيقة والاستقراء الذى لا يفسده الخيال المسرف ، او الاستنتاج الخاطيء ، او الاحكام المبنية على الظن ، وهو استقراء مؤسس على الحقائق التى سبق استخراجها من ملاحظة الظواهر في النفس وفي الوجود .

للمدارس المتأخرة فان المدرسة البيقارية ومنها اتيليدس لم تضاف شيئا وانما خلطت مذهب سقراط بمذهب بارمنيوس ؛ واغرق اتباع المدرسة القورينائية فى الحسية وعلمو الاحاد ؛ وقال احدهم ان الالهة هم رجال ممتازون آلههم الناس ؛ ولم توردهم ادلة تسمع بالناقشة ؛ ودلل ابيقورس على وجود الالهة ؛ وخلوهم وسعادتهم وعدم اهتمامهم بالعالم بطريقة ساذجة ؛ فاستمر في الشرك ولم يضاف جديدا .

وردد الرواقيون اقوال الماديين (الطبيعيين) في البيئة العالم وتمدد الالهة (الكواكب) ؛ وتوقف الشكك عن الحكم مثل السوفسطائية .

اما فلون اليهودى من المدرسة الانلاطونية الجديدة ، فلم يزد على ان خلط الفلسفة اليونانية بالعتيدة اليهودية ، وفسر التوراة وهو يحاول التوفيق بينها وبين آراء افلاطون تفسيرا يونانيا ، فوضع الوسطاء بين الله والنفس ، وزاد فعلا العالم بالقوات التى يديرها الله العالم ، اما افلوطين فقد مزج المسيحية باليونانية فقال مع انكسيندريس بالامتناهى ، ومع هرقلطس بالنار الالهية ؛ ومع بارمنيوس بالكرة التى هى وجود محض ، ومع انبا ووتليس بالكرة الاصلية الالهية ؛ وانكساغوراس بالزجاج الاول ؛ وزاد على ذلك الاعتقاد بالنتجيم والتعزيمات السحرية فمال الى الشرق ؛ وادخل مذهب اخطر العقائد القديمة الى جانب التصوف العالى (تاريخ الفلاسفة ص 329) .

هذا مجمل تصورنا للفكرة الدينية في الفلسفة الاغريقية ، ولو سألنا انفسنا عن الصورة التى تخرج منها من هذا كله فلا نجد في هذا الخليط المضطرب صورة واضحة تقول عنها انها تصور الفلسفة اليونانية . ذلك ان الفلسفة بطبيعتها اجتهاد ذاتى لامراد محدودين حتى وان اعتمد على الاستقراء في بعض مراحلها ، وكل ما نستطيع ان نخرج به هو ان هناك تصورات في الله يعمد الفلاسفة جميعا هذا بالاضافة الى الشرك الحقيقى وازلية العالم ووحدة الوجود .

الله في التصور العربى في ضوء الدراسة المعجمية مقارنة بالتصور اليونانى :

نلاحظ أولا على التصور العربى :

الرابعة : ان العرب توقفوا عن القول في الماهية والكيفية بالنسبة لله وصفاته ، كما توقفوا عن القول بالخلود والجزاء الاخرى - مع اعتقادهم بجزاء الله على الأعمال في الدنيا كما سجل المعجم - وما ورد من آثار حول البعث لم يتردد بصورة نظمين معها والى شيوعه عقيدة للعرب ، ويؤيد ذلك أن القرآن جادلهم جدالا شديدا ومفصلا حول البعث والجزاء الاخرى ، وكانت هذه العقيدة من عقائد الاسلام التى قاومها العرب بشدة ، وانكار البعث الجزاء الاخرى منسجم تماما مع أسلوب العرب في القصور والاعتقاد ، فهم يؤسسون معرفتهم وعقيدتهم على الملاحظة،وعقيدة البعث والجزاء الاخرى تقوم على القول بخلود النفس من ناحية ، وعلى علم يقينى بما بعد الموت من ناحية اخرى ، وقد لاحظنا في دراستنا للنفس في الفلسفة اليونانية انها لم تنجح قط في الاثبات بدليل على خلود النفس لا يمكن هدمه ، بل ان ارسطو توقف عن القول - او على الاقل لم يتضح رايه - في هذه المسألة ، ابا العلم اليقيني فهو في حاجة الى وحي الهى ، وقد اقر افلاطون بالحاجة الى الوحي في هذه المسألة ، كما سبق ان بينا في دراستنا للنفس في الفلسفة اليونانية ، ولم تعتمد الامم التى قالت بخلود النفس والجزاء الاخرى كالمصريين والافريقى على العلم اليقيني ، او على الوحي الالهى ، وانما اعتمدت على الاساطير (الميثولوجيا) فاذا توقف العرب عن الاعتقاد بما لم تصل اليه ملاحظتهم او نزل اليهم فيه وحي الهى ، فهم اقرب بذلك الى موقف العلم ومنهجه من جميع الامم التى قالت بخلود النفس وبالبعث والجزاء الاخرى بغير بينة من علم صادق ، او وحي الهى .

بعد هذه الملاحظات العامة نعرض رأينا في هذا التصور فيما يأتى : الله هو اللفظ الدال على الذات الالهية ، واصله اللغوى غامض ومضطرب في المعاجم بصورة لا يمكن الاطمئنان اليها . ولكنه في استعمال الشعر واللغة لفظ مجرد تماما ، ومنزه تنزيها خالصا فليس فيه تجسيد او تجسيم او تشبيه . وهو يدل على ذات منزهة عن النقائص موصوفة بكل صفات الكمال

لا يحده مكان ولا يجرى عليه قدر ولا زمان لانه مالك القدر والزمان ، فهو الذى يقضى ويقدر ولا يخضع في قضائه وقدره لقانون او ارادة غير قاتون ارادته ومشيئته .

ولفظ الله هو اكثر الالفاظ دلالة عليه واكثرها دورانا في الشعر اما مطلقة كما في القسم او موصوفة بصفة من صفاتها ، يليه لفظ (اله . رب) وقد لاحظ العرب في لفظ رب بالذات معنى الملكية كما سبق ان لاحظنا في المعجم فهو رب البيت ، ورب الناس ، ورب كذا الخ ابا الصفات التى يتصف بها فهى ليست مبنية على الاساس الجدى وهو الضرورة (اى ما يجب او لا يجب) بحض الاجتهاد والتحكم ، والاستعمال العربى القديم لا يسمح قط بتصور الابحث السخيفة التى شغل بها اهل الكلام انفسهم مثل : هل الصفات هى عين الذات او قائمة بذاتها ، وهل تعنى الصفات الكثرة - او تغير الاحوال بذات لا يجوز عليها التغير والكثرة ... الخ ، ذلك لان الحس اللغوى العربى كما سبق ان سجلنا ملامحه في الباب الاول هو حس دقيق يفصل الحدود دون ان يقع في التناقض او الاضطراب ، او يخلط بين ما هو في حق الله او نسي حقه غيره .

وحين يقول العرب ان الله حق لا يقصدون من ذلك الى القول بانه ضرورة او غلة او سبب ، وانما يتجاوزون ذلك تماما الى القول بانه حق قائم تشهد له حقائق الوجود في النفس وفي الوجود ، سواء استمر هذا الوجود او تعطل لانه مستغن بنفسه عن خلقه ، قائم بنفسه ، والفرق بين هذا القول والقول بالعلة والضرورة والسبب في الفلسفة اليونانية كبير جدا، لان القول بالعلة والضرورة والسبب . ذلك ان العلة والضرورات والاسباب تتعلق بعالم مخلوق ومصنوع ، لان العلة والضرورة والسبب ليس من اللازم ان تكون اشرف من المعلولات ومقتضى الضرورة والسبب ، وما اكثر المعلولات والمقتضيات والسببىات التى هى اشرف من عللها وضروراتها واسبابها ، اليس الكلام هو اشرف من عضلة اللسان التى هى علل وضرورة وسبب له ، صحيح ان العلة والضرورة والسبب الرئيسى هو الفكر ، ولكن ماذا يفيد الفكر وحده لو لم تكن هذه السلسلة الطويلة من العلة والضرورات والاسباب التى تدخل بين الفكر والكلام . ان احتقار المادة والعالم

المادى فى الفكر الاغريقى المثلثى (سقراط افلاطون ارسطو) هو الذى ادى بهم الى افتراض العلة اشرف من المعلول ، ولكن حين يكون الامر امر خالق ومخلوق ، يقع التبايز الحتمى بين الغنى والمحتاج ، وتكون الحاجة الظاهرة فى المخلوق الى خالقه هى الشهادة للخالق بانه الحق ، وذلك ما فهمه العرب تماما وتنبهوا له ، وذلك ما نطق به زهير فى قوله (بدا لى ان الله حق)

وبدا معناها ظهر بالملاحظة والعيان والتأمل فى حاجة العالم الى خالقه ومدبره ، ورازقه ، والقائم بأمره ، وهذا فارق اساسى فى طريقة النظر بين الفكر اليونانى والفكر العربى ، التوقف عند حد الشهادة المؤكدة دون ذهاب الى ما وراءها مما تضل فيه العقول ، وتأخذ بالظن الذى لا ينبغى من الحق شيئا ، ومما يؤكد هذا الفارق ان الله كلمة فى الفكر اليونانى لم يخرج بكل المحاولات عن حجم العلة المشاهدة فى العالم ، وتكاد تكون لله فى الفكر اليونانى نفس صفات العالم المخلوق ؛ حتى فى اشد صور هذا الفكر تجريدا ونقاء كما عند افلاطون وارسطو . اما افلاطون فقد اعجزه مبدا العلة عن ادراك القدرة كما رآها العرب ، فوجد نفسه مضطرا لاكمال عمل العلة الاولى الى وضع علل مساعدة تفرز قدرته وتعمل له (المثل . النفوس) ، واما ارسطو فقد جرد علته الاولى من القدرة تماما ليوفق بين التنزيه الواجب ، وما يقتضيه ارتباط العلة والمعلول من ضرورة مشتركة ، وذلك انه سلم فى الطبيعة بضرورة علاقة تشابه بين العلة والمعلول تجعل التأثير ممكنا ، ذلك (ان المحرك الطبيعى متحرك هو ايضا من جهة ما هو بالقوة لانه انما يؤثر فى المتحرك بالتماس فينفع بهذا التماس فى نفس الوقت) تاريخ الفلسفة ص 181 ، ولم يدرك وهو يقول بذلك انه هدم العلة الاولى اى المحرك الاول حتى وان جعله محركا لا يتحرك فاقوع نفسه فى التناقض .

اما زهير فهو يقول له (بدا لى ان الله حق) ، واللفظ العربى يكشف بدلالاته عن أسلوب ومنهج هو منهج العرب الذى سجلناه فى مبحث الخصائص اللفوية فى النظر والاستدلال ذلك ان الشيء يقال له بدا الا بالنظر اى انه نظر فبدا له ان الله حق ، فهو اقتناع نتيجة النظر ، ولذلك رتب زهير التقوى لان الحق يستلزم خلوص الطاعة لزوما ضروريا ، وهذا وجه آخر من وجوه دقة استعمال لفظ الحق الذى يعنى

فى عرف العرب استلزام التسليم له ، لان التسليم لازم من طبيعته ، فالقول الحق حجة نفسه ويجب التسليم له والعرف الاخلاقي الحق حجة نفسه ويجب اتباعه ، والله الحق حجة نفسه ويجب الخضوع له .

والله عالم وعليم ، يعلم الغيب ويعلم ما فى النفوس ، وعلام ما اخفت القلوب ... الخ اى ان عليه شامل محيط لا يفوته شىء فى السماء او فى الارض او فى خبايا النفوس . ولذلك ربطوا بين العلم والجزاء الاخلاقي ، والعلم والرزق ، والعلم وقضاء الحاجات ، والعلم وتدبير الكون ، ولم يقل العرب ان الله يجب ان يكون عالما كعلة وضرورة لكذا وكذا ، وانما راوا ان العلم صفة له يشهد لها الوجود ، وهى صفة قائمة به حضر المعالم او غاب .

وتياسا على ذلك وصفوا الله بانه الفريد ، القادر صاحب المشيئة ، المدبر ، المتصرف ، النعمال ، السميع ، البصير ، القاهر ، المنعم ، الرحمن ، الرحيم ، السلام ، الوارث ، الباقي ، النافع ، الضار ، الرازق ، المنتقم ، الخالق ، الصانع ، البصير ، المسبور ، المعطى ، الوهاب ، المؤمن ، المعيد ، المسؤول ، المعين ، المأمول ، البغيث ، المجيز ، القابض ، الباسط ، الحكم ، العدل ، اللجأ ، الذى يقضى ويتقدر ويثيب ويمعاقب ويرنم ويصنع ، ويهلك ، ويهدى كما سبق ان راينا فى المعجم ، وهو فى ذلك واحد لا شريك له كما قال عبيد ، وكما كانوا يقولون فى تبييتهم :

لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ذلك لان الالهة الاخرى فى تصورهم مخلوقة له ومملوكة هى وما تملك .

اى ان التصور العربى نجح فى ان يحقق عدة اشياء لم ينجح فى تحقيقها التصور اليونانى والمدارس التى تأثرت به وهى :

1 - الجمع بين القول باله لا شبيه له ، ولا يدرك ، كامل ، مستغن ، وهو فى نفس الوقت خالق ومدبر ، ومتصرف وعالم ... الخ فهو منزه تنزيها مطلقا من جهة ، وقائم بأمر العالم الذى خلقه من جهة ، فلم يدفعهم فرط التنزيه كما فعل ارسطو الى اعتباره ثابتا يحرك ولا يتحرك عالما بنفسه فقط ، ولم يدفعهم عن ادراك الصورة التى يصرف فيها الاله الكامل ملكه ويدبره من خارجه الى احلاله فى العالم والقول بوحدته

وفي الحياة أيضا ، اذ أين يكون المنز من قدر لا يفلت منه
اله او بشر ... ؟

راى الاسلام فى تصور العرب لله :

اتخذ الاسلام من التصور العربى لله موقفا نخرج
منه بالملاحظتين التاليتين :
الملاحظة الاولى :

ينطبق تصوير القرآن لله عند العرب تماما على
نفس الصورة التى سجلناها فى المعجم ، مما يؤكد
سلامة تصوير هذا المعجم للفكرة الدينية عند العرب
عند نزول القرآن ، فقد سجل القرآن للعرب ايمانهم
باله واحد يفرده بصفات الكمال من خلق ، وتديبر
وتصريف ورعاية للبشر ، فقد سجل ايمانهم بالله
الخالق فى قوله « ولئن سألتم من خلقهم ليقولن الله »
الزخرف : 87 ، وسجل ايمانهم بالمدير المتصرف الذى
يرعى العباد فى قوله « واذا مسك الضر فى البحر ضل
من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان
الانسان ككورا » الاسراء : 66 ، وفى معرض تنزيه
الله عن الشريك فى ملكه او خلقه او امره ونهيه ، وتحديد
موقع الشركاء منه سجل اعتقادهم فى قوله « ويميدون
من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء
شفعاؤنا عند الله » يونس : 18 ، وفى قوله « والذين
اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله
زلفى » الزمر : 2 ، وفى قوله « ولا يملك الذين
يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم
يعلمون » الزخرف : 86 .

وهذا يعنى بشهادة القرآن ان العرب لم يكونوا
يقولون عند نزول القرآن بالشرك الحقيقى الذى قالت
به الشعوب الاخرى ، بل وقال به الفلاسفة انفسهم
كما سبق ان بينا ، ونقصد بالشرك الحقيقى منازعة
الله فى ذاته وصفاته ، اى فى تفرده بالبقاء والتنزه عن
التفانى ، والخلق والتقدير والامر والنهى ... الخ
الى آخر صفات الكمال الذى وصف بها العرب الله
وخصوه بها ، وادعتها الشعوب الاخرى ، والفلاسفة
لشركاء والارباب الازليين المتصرفين مع الله فى ملكه .
بل اننا نلفت النظر الى ظاهرة فكرية بالغة الاهمية
الا وهى ظهور من يطلق عليهم (الحنفاء) قبل ظهور
الاسلام ، وهم فئة لم يعرفها التاريخ الفكرى والمعائدى
لامة اخرى غير العرب ، فهم ليسوا طائفة من المتبدين
الزاهدين فى الدنيا ، او الكهان الذين ظهروا فى الشعوب

الوجود ، واشراك شركاء له فى الخلق والتدبير . ومرجع
ذلك الى ان العرب وقفوا عند حدود علمهم ، فلم يطلبوا
الماهية او الكيفية ، وانما سجلوا ما وصل اليه علمهم ،
والزعم به شهود العالم وملاحظته ، فليست هناك
صفة عندهم من صفات الله مخترعة او مفترضة مثل
المحرك والمثال ... الخ وانما كل صفات الله عندهم
مستقراة استقراء دقيقا من ملاحظة آيات الله فى
انفسهم وفى الكون الذى يعرفونه ، فذلك الحاجة البادية
فى الكون كله الى مدير ما تم بامرهم اشهدتهم على المدير
الذى لا يفعل عن خلقه واطراد السنن مع استمرار
التغير اشهدهم على الباقى الوارث ، واطراد القبض
والبسط فى الرزق وغيره اشهدهم على القابض الباسط ،
واطراد الرمع والخفض اشهدهم على الرافع الخافض ،
واشهدهم الجمال على المبدع ، والرزق على الرازق ،
والخلق على الخالق والرحمة على الرحيم والرحمن ...
الخ .

وقد كان من الممكن ان يصل فلاسفة اليونان الى
ما وصل اليه العرب لو انهم تواضعوا ووقفوا عند حدود
علمهم ، فقد استدل افلاطون على الصانع بالصنعة ،
والجميل بالجمال ، والمحرك بالحركة ... الخ ولكنهم بدلا
من ان يتوسموا فى الملاحظة توسموا فى الجدول والتخيل
فلم يصلوا الى شىء غير الاضطراب والشك الحقيقى .

2 - انهم نجحوا فى القول بالتدبير دون حاجة
الى وسطاء او شركاء من (الالهة) لحل معضلات
الخالق الكامل او المدير الكامل بالعالم ، لانهم لم يروا
فى الوجود غير صانع واحد ، وخالق واحد ، ومدير واحد ،
ورازق واحد - وذلك لان الشركاء عندهم ليس لهم
مشاركة مع الله فى شىء من خلقه فلا يتصفون بصفة
من صفاته ، فشهدوا له بذلك وسلموا له فيما جهلوه
من طرائق التدبير والتصريف ، فاستقام لهم اعتقادهم
بانه الواحد المتفرد دون معضلات .

3 - انهم وضعوا القدر او القانون او السنة فى
الموضع الصحيح فلم يجعلوا الله محكوما بشىء قدرا
او قانونا او سنة - وانما جعلوه حاكما يقضى ويقدر
ويضع السنن والقوانين التى تلزم العالم ولا تلزمه ،
فحلوا المشكلة الزمنية للمعقدة (الميتولوجية) اليونانية ؛
والفلسفة اليونانية خاصة والفكر الغربى بعمامة ، وهى
مشكلة القدر الذى يحكم الالهة والبشر ، وهو الاشكال
الذى خلق الماساة فى الادب الاغريقى والآداب الغربية ؛

العربية دخلت وهذا حدث لم يتكرر في تاريخ أى أمة -
بأكملها في الإسلام في ظرف ثلاث وعشرين سنة من بدء
الدعوة ، وفي خلال عام وأحد بعد فتح مكة وقد دخل
غالبيتهم الإسلام بناء على اقتناع كامل بأنه قد نزل به
وحي الهى الى رجل منهم هو محمد عليه السلام .

آمنوا بذلك عن يقين ، وهم أدري الناس بما
بين عقائدهم وبين الإسلام من اتفاق واختلاف ، ورغم
انهم تازعوا محمداً عليه السلام أول الامر ، واتهموه
بالانتماء والاختلاق كما سجل القرآن نفسه في مواضع
كثيرة ، الا أنهم في نهاية الامر اقرروا بأن محمداً يبلغ
عن ربه ما يوحى اليه ، ولا يأتيهم بدين اخترعه أو
افتراه ، وموافقة القرآن للحق الذى عرفوه في ذات الله
وصفاته ، هو موافقة للحق الذى يمكن أن يصل اليه
البشر بأنفسهم اذا أحسنوا النظر ، وأحسنوا التدبير ،
وأحسنوا التفكير ، وأخذوا العلم بأسبابه الصحيحة ،
ولذلك نرى ان القرآن لم يقر فقط الحق الذى عند
العرب في ذات الله وصفاته ، بل أقر أيضاً المنهج
العلمى الذى أداهم الى هذا الحق .

وهو منهج النظر في آيات الله في السماء والارض
وفي داخل النفوس ثم دعا الناس جميعاً الى أن يستخدموا
نفس المنهج في التعرف على الله وصفاته ، ولم يأتيهم في
ذات الله وصفاته بشيء خارج هذه الحدود « سنزيهم
آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق »
الشورى : 53 ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » الذاريات :
22 « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء
كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض
كيف سطحت » النعاشية : 17 / 20 « ان في خلق
السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى
الالباب » آل عمران : 15 .. الى آخر هذه الآيات التى
تدعو الى النظر والتفكير والتدبير على طريقة العرب
ومنهجهم .

ويتضح لنا اقرار القرآن للعرب على الحق الذى
في عقيدتهم في الله وصفاته . حين تلاحظ ان لفظ (الله)
استعمل بنفسه وفي نفس الحدود التى استعملها العرب ،
(فالله) في القرآن كما في المعجم الشعرى هو الاسم
الدال على الذات الالهية الموصوفة بكل صفات الكمال ،

الآخرى ، وانما هم فئة خاصة ذات طابع ومنهج
عربيين ، تمثل بطابعها ومنهجها الفكر العربى فى أمتى
صوره . و (الحنفاء) افراد لزموا منهج العلم فى
الاعتقاد لزوماً كاملاً ، فرفضوا الوثنية العربية ، ولم
يعجبهم هذا التوحيد المشوب بالشرك عند العرب ايا كان
نوعه ودرجته ، وانطلقوا فى أرجاء الارض التى تصل
اليها أقدامهم يبحثون عن دين تطمئن اليه نفوسهم
ويستقيم مع منهجهم فى النظر والاعتقاد ، فمنهم من
اعتنق النصرانية وهم قليل مثل ورقة بن نوفل ، وعبيد
الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وأمىة بن أبى
الصلت ، ومنهم الذى لم يطمئن الى دين - لأن الأديان
الكتابية قد تلبست بأساطير الوثنيات وخرافاتها -
فتوتفوا عن الاعتقاد بغير الاله الواحد الأحد دون الأخذ
بشئ من شرك الجاهلية العربية أو شرك الآخرين ،
فزهوا بالله تزيهاً خالصاً ، وبرأوه من الشرك والولد
والصاحبة ، فكان توحيدهم أصفى ما عرفته البشرية
بغير هداية من كتاب منزل أو نبي مرسل .

ومن هؤلاء الموحدين المنزهين : زيد بن عمر بن
نفيل ، وأرباب بن رثاب وسويد بن عامر المصطلقى ،
واسعد أبو كرب الحميرى ، وكعب بن سلمة بن زهير
الإبدي وعمير بن جندب الجهنى ، وأبو قيس صرحة بن
أبى انس الذى أسلم وحسن اسلامه - وعامر بن
الظرب العدوانى ، وعبد الطاتجة بن ثعلب بن ويسرة
من قضاة ، وعلاف بن شهاب التميمى ، والمتلمس بن
أمىة الكنانى (1) وكان آخر هؤلاء وأشرفهم هو محمد
صلى الله عليه وسلم .

الملاحظة الثانية :

تقبل الإسلام تصور العرب فى ذات الله وصفاته
تقبلاً تاماً ، فلم يغير عليهم فى شئ منه الا فى اعتقادهم
الشرك وما يلحق به من عبادات وطقوس ، والا فى
انكارهم للخلود والبعث والجزاء الأخرى . واقول تقبل
الإسلام ، ولا أقول تطور الإسلام عن عقائد العرب كما
ذهب بعض المستشرقين (2) الذين لا يؤمنون بالوحي ،
ويتسرعون بحكم ما تمودوا عليه من قياس فى رد
الشبيه ، دون مراعاة للاعتبارات التاريخية ، واختلاف
مناهج الحكم والقياس ، ولو تنبه هؤلاء الى ان الجزيرة

(1) تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على ج 5 ص 263 / 269 .

(2) الدين القديم ، دينيلف نلس وآخرين ص 41 / 44 .

102 « ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض » الاعراف : 54 ، « قل لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله » يونس : 42 ، « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » الرعد : 26 ، « من يضل فلن تجد له وليا مرشدا » الكهف : 7 « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » الروم : 40 « هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الحشر : 23 .

اما لفظ (اله) فقد تردد في القرآن حوالى 137 مرة ، وهو يأتى دائما كما قلنا في مجال عرض قضية الوجدانية قبل « والهمك اله واحد » البقرة : 163 ، « لا اله الا هو الرحمن الرحيم » البقرة : 63 ، « الم : الله لا اله الا هو الحي القيوم » آل عمران : 1 ، 2 ، « لا اله الا هو العزيز الحكيم » آل عمران : 6 .

وقد تردد لفظ (رب) في القرآن حوالى 976 مرة يدل فيها جميعا على الخلق والملكية مثل « الحمد لله رب العالمين » الفاتحة : 2 « قل اغفر الله ابغى ربا وهو رب كل شيء » الانعام : 164 « رب العرش العظيم » التوبة : 129 « ربكم ورب آبائكم الاولين » الشعراء : 26

ونجد هذا اللفظ يتردد في فواتح السور القرآنية دالا على ذات الله الموصوف بالرحمة « بسم الله الرحمن الرحيم » كما ان هذا اللفظ هو المحور الذى يدور عليه الحديث عن ذات الله وصفاته في جميع السور ، ويأتى لفظ (اله) في الغالب متخصما لانه يستعمل في معرض مناقشة قضية الوجدانية ، ويتردد في نفس الوقت بصورة أقل كثيرا من لفظ (الله) : اما لفظ « رب » وهو اوسع استعمالا من لفظ (اله) واقل من لفظ « الله » فانه يأتى دالا على الخلق والملكية .

وعلى سبيل الحصر تردد لفظ (الله) في القرآن حوالى 2820 مرة ، وهو يرد فيها كلها اما مطلقا او مقرونا ببعض صفات الكمال التى تردد معظمها في المعجم الشعري وفي نفس الحدود ، ومن امثلة ذلك قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » البقرة : 105 ، « والله يعلم وانتم لا تعلمون » البقرة : 232 « والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » البقرة : 240 « والله شديد العقاب » آل عمران : 21 « قل ان تخفوا ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله » آل عمران : 26 ، « يختص برحمته من يشاء » آل عمران : 24 ، « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه » الانعام :

(يتبع)